



مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

namacenter



أوراق نماء



السياسة المحمدية
والبناء الأنموذجي للمجتمع
التعددي في المدينة المنورة
محمد كنفودي

السياسة المحمدية



السياسة المحمدية والبناء الأنموذجي للمجتمع
التعددي في المدينة المنورة

د. محمد كنفودي

ملخص البحث

نبحث في هذه المقالة المقومات الكبرى التي أسس الرسول عليه الصلاة والسلام عليها بناء مجتمع المدينة المنورة، خصوصاً في بُعد مراعاة التعدد الديني لتحقيق التساكن الإنساني فيها.

تناول العلماء والنظار في تاريخ الفكر الإسلامي تأصيل وتفريع القول في موضوع «مقامات تصرفات الرسول» عليه السلام، ابتداءً بالقرافي وقبله بزمن غيره، مروراً بالطاهر بن عاشور وعلال الفاسي، وصولاً إلى من أعاد النظر وقلبه على أوجه أخرى، كمحمد شحرور وعدنان الرفاعي وسامر إسلامبولي وأبو يعرب المرزوقي وغيرهم كثير^(١)، وكنا قد تناولنا ذلك

(١) مثلاً أبو يعرب المرزوقي أضاف مقاماً آخر سماه ب «مقام الخلافة الراشدة»، إذ إنه عليه الصلاة والسلام يعد أصلاً لكل «خلافة راشدة»، ليس للمسلمين فحسب، بل للإنسانية جمعاء. وما الخلفاء الراشدون الأربعة إلا فروع للأصل النبوي اللامتناهي. وكونه عليه الصلاة والسلام أصلاً ل«خلافة الراشدة»، فإن ذلك متحقق بالمعنى القرآني، لا بالمعنى الإنساني أو التاريخي؛ بالنظر إلى أنه عليه السلام حقق الأنموذج التام والكامل لفريضة «الاستخلاف» في الوجود أفضل تحقيق إكماني؛ من حيث هي منزلة إنسانية. فتعيّن في سنته عليه السلام معنى التناغم بين الدين والدنيا، وفي سياسته عليه السلام معنى التناغم بين الدين والسياسة. بناء عليه، قدّم أبو يعرب المرزوقي جملة أدلة على مقام كونه عليه الصلاة والسلام «خليفة راشداً»، بل أصل كل «خلافة راشدة»، ومنها: أ. طلب



تأصيلاً وتنزيلاً في مقالة منشورة بمركز نماء. وما يهمننا في هذه المقالة ليس بسط القول في مقامات تصرفات الرسول عليه السلام تعزيزاً أو نقداً كما هي عند من أصل القول أو أعاد النظر، بل ما يهمننا رأساً، هو تفصيل القول في تحديد المقومات الأساسية التي أنشأ عليها الرسول عليه السلام «دولة المدينة المنورة». ويمكن للناظر في نصوص القرآن والسنة النبوية الصحيحة وأحداث السيرة النبوية الموثوقة، أن يحددها بشكل جلي^(١).

إن «سياسة الرسول» عليه الصلاة والسلام في إنشاء «دولة المدينة»^(٢)، ليست عملاً مجرداً، وإلا لكانت نظير غيرها من سياسات الدول، بل هي في الأساس عمل مؤيد تسديداً بداية ونهاية بـ«الوحي»، مما جعلها ترتقي مرقى الأنموذج الأمثل في

مبايعة من آمن به من الناس؛ بحيث قد علم من سيرته وسنته عليه السلام زمن النبوة والنزول طلبه ممن آمن به أن يبایعه مبايعة طوعية، تأكيداً لميثاق العقد أو العهد المبرم بينهما تصديقاً للإيمان به عليه السلام. ب. كونه عليه السلام مأموراً بالشورى بنوعها نصاً؛ فالرسول عليه السلام من حيث كونه مبعوثاً أو مرسلأ لم يحتج إلى ذلك، ومن حيث كونه ذا سياسة راشدة احتاج إلى ذلك. وقد علم من سيرته وسنته عليه السلام زمن النزول، الكثير مما يدل على امتثاله لأمر الشورى النظرية والعملية معاً. ج. كتابته عليه السلام لوثيقة المدينة المنورة؛ بحيث إنها تعكس من خلال نصها الطبيعة التعاقدية بالمعنى السياسي لـ«لخلافة الراشدة»، وقد تواتر نقل ذلك من سيرته وسنته عليه السلام زمن النزول المدني. د. كونه عليه الصلاة والسلام -من منظور أبي يعرب المرزوقي- قد اجترح قاعدة «الترك المؤسس» قياساً على «الفعل المؤسس»؛ فمن حيث كونه لم يحدد من بعده الخليفة الذي خلفه من بعده لتدبير الشأن العام للأمة، يدل على «بداية الرشد الإنساني المستغني عن الوصاية»، ليجعل الأمر كله منوطاً بالاجتهاد الإنساني الخالص، وليس بـ«التعيين» أو «الوصية». الجلي في التفسير، ج. ٣، ص. ١٣١، ٢٠٤، ٢٠٥، ج. ١، ص. ١٠٥.

(١) ذلك على النقيض مما يدّعيه جمع من أهل النظر المعطوب، وهو أن الإسلام نظراً وعملاً لا يتضمن مقومات مفهوم «الدولة»، نظير غيرها من المفاهيم، التي ظنّها البعض حديثة الولادة نشوءاً منقولاً، كـ«الحرية» و«العقل» و«حقوق الإنسان» ونحو ذلك.

(٢) على اعتبار أن المدينة كانت متعددة على المستوى الديني والمذهبي، خصوصاً بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إليها.



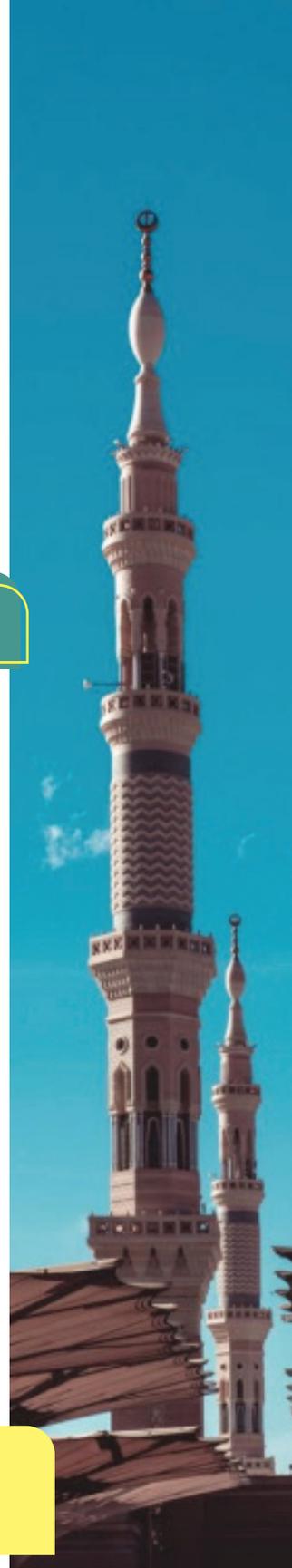
الوجود الإنساني⁽¹⁾، الذي يستقي منه الناس معاني مقومات البناء الإنساني الشهودي الحيّ للدول والمجتمعات.

انتظم عمل الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة الذي استغرق نحوًا من ثلاثة عشر عاماً على القول المختار، في ناظم بناء الفرد من مختلف الجوانب الممكنة. ولما هاجر عليه السلام إلى المدينة المنورة، شرع في وضع لبنات بناء الدولة، الذي استغرق نحوًا من عشرة أعوام، ومن أهم المقومات الأساسية التي اعتمدها عليه السلام لتحقيق هذا البناء الأنموذجي، نذكر ما يأتي:

أولاً. مقوم احترام التعددية الدينية في المجتمع المدني

بعد ما استقرّ الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة بعد الهجرة، تأسست لبنات مقوم «التعددية الدينية»: بحيث إن كل فرد من أفراد المدينة، يمارس دينه بشعائره وشرائعه بالطريقة المنصوص عليها في دينه، دون أن يؤذي أحد أحداً، بأي طريقة من طرق إلحاق الأذى، فعلياً كان أو قولياً أو رمزياً ونحوه. ذلك أن واقع المدينة في عهده عليه السلام، ضمّ كلاً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمومنين والمنافقين والوثنيين من العرب المشركين، فضلاً عن أصحاب الملل والنحل الأخرى، وذلك لاعتبارين: الأول: أن المدينة كانت تعدّ من أهم المدن في شبه الجزيرة العربية، مما جعلها من مراكز التجارة ومعبراً لقوافلها التجارية. الثاني: أن المدينة بعدما حلّ بها الرسول عليه الصلاة والسلام وشاع خبره في الأمصار والأقطار، حجّ الناس إليها من كل حدب وصوب. وتدبير هذا التنوع في الاجتماع الديني يفرض حتمًا احترام مقوم «التعددية الدينية»، بصرف النظر عن ماهية إنية الدين أو الملة المتبعة، وإلا دخلت المدينة في حروب دينية لا نهائية. وتأسيس

(1) بمعنى أن روح مقوماتها تعدّ «الأنموذج الأمثل الوجودي» في الوجود الإنساني عموماً، والإسلامي خصوصاً.



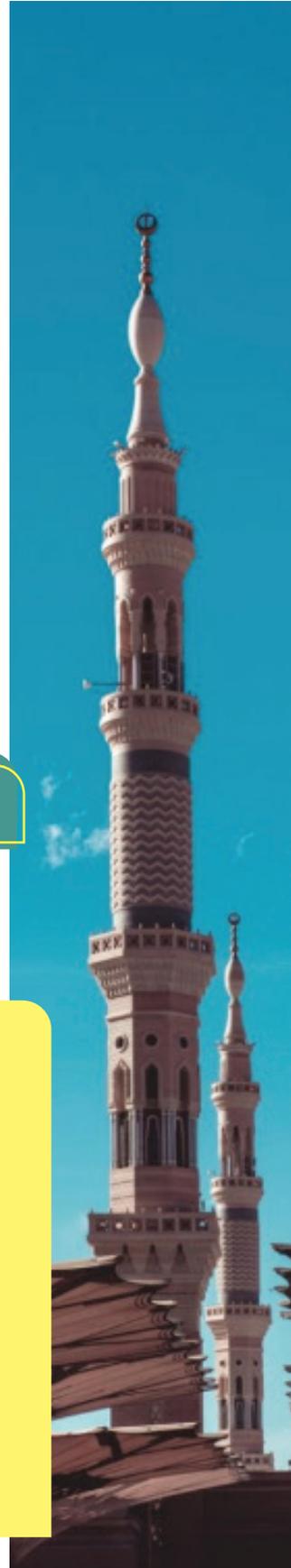
«التعددية الدينية» في المدينة من قبل الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن مراعاة لواقع المدينة والتكيف معه فحسب، بل هو أساس قيام العمران الإنساني، ومراعاة لسنة الاختلاف في الخلق^(١)، فضلاً عن احترام الاختيار الديني للإنسان^(٢). لذلك، لم يثبت عن الرسول عليه الصلاة والسلام، أنه قتل أو عذب مخالفه في الدين^(٣)، أو أجبرهم على ترك أديانهم، ولو كانوا من المنافقين، الذين كانوا يعملون على إفشاء أسرار الرسول عليه السلام وأصحابه لأعدائهم في داخل المدينة وخارجها، والكيد له في السر والعلن، أو أنه عليه السلام مارس عليهم أساليب الإغراء والإغواء والخداع والتمويه ونحو ذلك، وشواهد ما سلف لا تعد كثيرة^(٤).

مما يدل على تأسيسه عليه الصلاة والسلام مقوم احترام «التعددية الدينية»^(٥)، في مجتمع أو دولة المدينة، نذكر ما يلي:

١. النصوص القرآنية. يقول الله تعالى:

أ. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾. [البقرة. ٢٥٥]^(٦).

- (١) سنة «الاختلاف» في الخلق بمختلف تعلقاتها المتحققة، دينية أو فكرية أو لغوية أو جنسية ونحوها، تعد مشيئة إلهية لا ترفع ولا تنزل من الوجود، إذ هي تعد آية من آيات الله تعالى في الخلق. تأمل الآيات القرآنية الآتية: [هود. ١١٨]. [الروم. ٢١].
- (٢) تفكر في الآيات التالية: [يونس. ٩٩]. [الأنعام. ٦٧]. [الزمر. ٣٨].
- (٣) فضلاً عن مخالفه في الرأي، كما ثبت في نصوص السنة ووقائع السيرة النبوية، وخصوصاً في المدينة المنورة.
- (٤) إن دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام في مختلف مراحلها، كانت تقوم على مقوم قول الحق صراحة وعلناً، دون خشية لومة لائم، من المستكبرين في الأرض أو من الضعفاء، فضلاً عن رفضه لكل وسائل الإغراء والاستقطاب الملغى لإرادة أو حرية الاختيار الإنساني الذاتي.
- (٥) مع العلم أن الكثير يعبر عنها بمفهوم «التسامح»، تقليداً لمنقول، وليس اتباعاً لمأصول.
- (٦) إن الآية تنفي نصاً جنس الإكراه في الدين، باعتبارهما نقيضين لا يجتمعان، فضلاً عن النهي بالمعنى الشرعي.



ب. ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. [١].^(١)

ج. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. [آل عمران. ٦٣].^(٢)

د. ﴿وَكَيْفَ يُحْكَمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾. [المائدة. ٤٥].^(٣)

هـ. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. [المائدة. ٧٠].^(٤)

و. ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. [الممتحنة. ٨].^(٥)

٢. جاء في وثيقة المدينة المنورة التنصيص على: «هذا الكتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس... وإن اليهود ينفقون مع المومنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم... وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وإثم، وإن الله جار لمن برّ

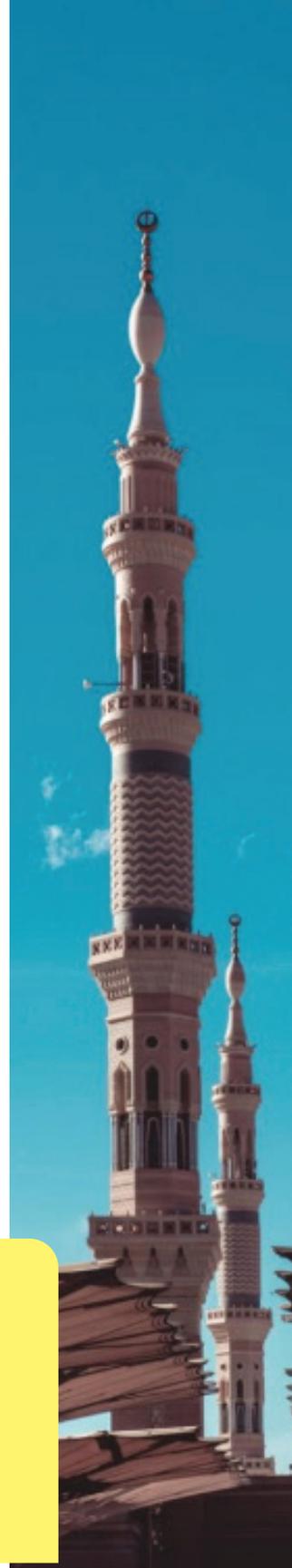
(١) انظر ما رواه الواحدي في سبب نزول الآية. أسباب النزول، ص. ١١٧.

(٢) تنص الآية على أهم بنود التعايش السلمي، بوصفها قواسم دينية مشتركة، داخل الدولة التعددية.

(٣) انظر ما رواه الواحدي في سبب نزول الآية. أسباب النزول، ص. ١٠٥.

(٤) يشتمل القرآن على كثير من النصوص التي تدعو أهل الكتاب إلى إقامة أحكام التوراة والإنجيل، كما يأتي ذكر أهمها لاحقاً.

(٥) انظر ما رواه الواحدي في سبب نزول الآية. أسباب النزول، ص. ٢٣٦-٢٣٧.



واتقى، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(١).

وعليه فإن مقوّم «التعدد الديني»، الذي أقام عليه الرسول الصلاة والسلام عليه مجتمع أو «دولة المدينة»، بقدر كونه كان عاماً لكل مجموعات مكونات المدينة وقتئذ؛ سواء كان أهل الأديان من أهل الكتاب أو من غيرهم، الذي احتفّ في أصله وفصله بالأخلاق المعيارية السامية، فقد كان عليه السلام في كل ذلك مسدداً بآيات الوحي المنزل في النظر والعمل، إيجاباً أو سلباً^(٢)، هذا الذي أعطاه صفة الأنموذج الأمثل الوجوبي في روحه، وليس في فعله فحسب^(٣)، وليس مجرد الأنموذج الإمكانى، إذ هو مجرد تاريخ، خصوصاً على مستوى فعله.

ثانياً. مقوّم تأجيل الحكم على الناس المختلفين دينياً إلى يوم

الفصل المبين

بحكم سنة الخلق الرباني وطبيعة العمران الإنساني، اختلفت أديان الناس مللاً ونحلاً؛ سواء كانت منزلة أو وضعية، ليس على مستوى الاعتقاد والتصور فحسب، بل على مستوى العمل والسريان أيضاً. وقد كانت المدينة المنورة إبان زمن التأسيس النبوي، فضلاً عن غيرها، يختلف الناس فيها على المستوى الديني، ما بين الأديان المنزلة والوضعية، وهي وإن اختلفت عن الدين الخاتم الذي جاء به عليه الصلاة والسلام، فإنه مكن لكل واحد من أصحابها أن يعتنق ما اختار، ويمارسه وفق طريقة أهل الدين، دون إكراه أو تضييق^(٤)، شرط تحقق ناظم الأمن

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، مكتبة السنة، القاهرة، مصر، ط. ٦، ١٩٨٩، ص. ١١٥-١١٢.

(٢) فإجلاء يهود بنو النضير عن المدينة، كان بمقتضى خرق الاتفاق، فضلاً عن الوحي المنزل. تأمل آيات سورة الحشر، ٥-٢. انظر ما أورده الواحدى في: أسباب النزول، ص. ٢٣٣، ٢٣٢.

(٣) ناظم ذلك كله، أنه عليه السلام فيما فعل، وفيما لم يفعل، كان مصحوباً ومحاطاً بالوحي المنزل.

(٤) تأمل قوله تعالى: [الغاشية، ٢٢]. [ق، ٤٥].



الديني بين أهل الأديان، وأفعالهم في سريانها في المجتمع^(١). ولم يثبت عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه حكم على واحد من الناس من أصحاب الأديان اعتقاداً أو عملاً، باعتبار أن الحكم بين الناس المختلفين أساساً في الدين مرجعه إلى الله تعالى، إلى يوم الفصل المبين^(٢)، وليس إلى أي أحد من الناس مطلقاً، بما فيهم الرسول عليه الصلاة والسلام^(٣). وقضية تأجيل الحكم على الناس المختلفين في الدين أساساً، بقدر كونه من أهم نواظم ما قام عليه مجتمع المدينة المنورة، هو أيضاً من أهم الأحكام النصية القرآنية الكبرى، التي وردت في العديد من السياقات، وهي تؤسس لناظم احترام «التعددية الدينية» بين الناس داخل المجتمع التعددي، إذ ذلك من أهم حقوق الناس، التي صانها رب العالمين لهم جميعاً دون تمييز على أي أساس.

ومما يدل على ذلك، نذكر النصوص القرآنية الآتية: يقول الله تعالى:

أ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾. [الحج. ٧].

ب. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. [آل عمران. ٥٤].

(١) إذ ذلك من أهم ما يديم التعايش السلمي بين الناس المختلفين في مجتمع أو دولة تعددية، وإلا أكلتها الحروب الداخلية، وخصوصاً الدينية والمذهبية. تأمل آية الأنعام. ١٩.

(٢) إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحكم على بعض أصحابه الذين صدرت عنهم أفعال مخالفة لمقام الرسول عليه السلام، كشأن من خالف ناظم السرية قبل الفتح، مثل ما وقع لحاطب بن أبي بلتعة. صحيح البخاري، حديث رقم. ٤٢٧٤. أسباب النزول، الواحدي، ص. ٢٣٥، تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ٢١٨-٢١٩.

(٣) إلا ما ثبت نصاً، كأمر الحكم في القصاص في الدماء بين الناس. تأمل قوله تعالى: [الإسراء. ٣٣]. [البقرة. ١٧٧. ١٧٨. ١٩٣]. [المائدة. ٤٧].

ج. ﴿وَوَقَّالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ التَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾. [البقرة. ١١٣].

د. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. [النحل. ١١٤].

هـ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. [الأحزاب. ٢٥].

و. ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. [المتحنة. ٣].

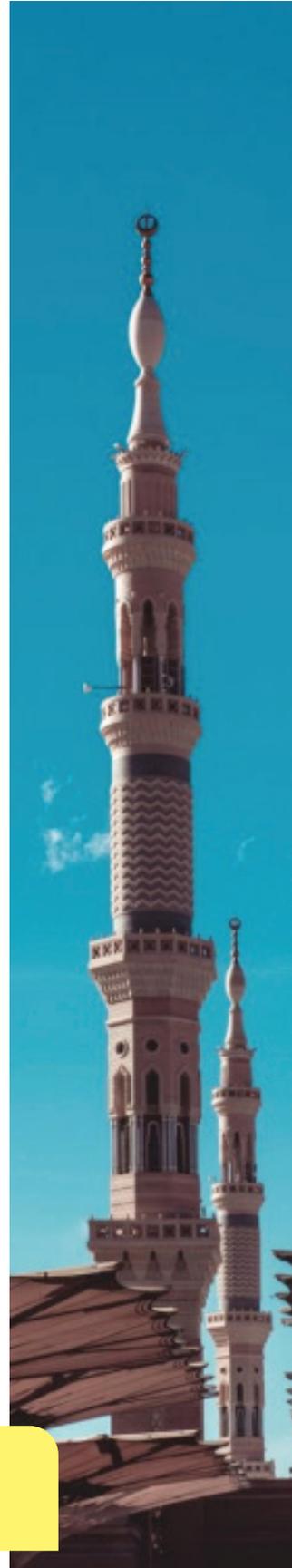
إن الذي يدعم ما سلف أكثر، هو أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد مكّن أهل الأديان من إصدار الأحكام في القضايا والنوازل التي تخص كل أهل دين على حدة، وفق أحكام دينهم، إلا إذا كان الأمر عاماً أو رفعت القضية إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ونحو ذلك^(١)، ومما يدل على ذلك، قوله سبحانه وتعالى:

أ. ﴿فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة. ٤٤، ٤٥]^(٢).

ب. ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾. [المائدة. ٤٨-٤٩].

(١) كما هو ثابت في نصوص السنة وأحداث السيرة.

(٢) الذي يدعم ذلك، ما رواه الواحدي في سبب نزول الآية. أسباب النزول، ص. ١٠٤.



ج. ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَاحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾. [المائدة. ٥١].

إن الذي يعزز هذا الناظم الكلي هو الحكم الذي أوكله رسول
الله عليه الصلاة والسلام لسعد بن معاذ الأنصاري الأوسي
على يهود بني قريظة، عقب غزوة الأحزاب سنة خمس للهجرة^(١).

وعليه فإن تشريع الإسلام النصي تأجيل الحكم على الناس
المختلفين في الدين إلى يوم الفصل المبين، والتنصيب على
أن الحكم يقيمه ويصدره الله تعالى وحده^(٢)، ليس مرده إلى أن
أمر الدين قضية فردية ذاتية، يغيّرها الإنسان حسب أهوائه دون
ضابط أو قانون^(٣)، وإلا انهدأ أصل اعتبار قداسة الدين في أعين
الناس، بل هو من باب احترام، أو قل، تقديس اختيار الإنسان
الديني أول الأمر، ما دام أنه هو المسؤول الوحيد عن اختياره الحر
الذاتي. فضلاً عن التمهيد لكل ما من شأنه تأسيس التساكن
الإنساني بين المجموعات الدينية داخل المجتمع أو الدولة
التعددية.

ثالثاً. مقوم الاحتكام إلى الوثائق القانونية المتفق عليها
مسبقاً

إن تحقيق كل معاني الأمن والسلم الإنساني داخلياً أو خارجياً،
بين المتفقين أو المختلفين في الدين، أو المتحدين في المكان

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ١٧٩ وما بعدها. صحيح البخاري، حديث رقم. ٤١٢١.
الواحد، أسباب النزول، ص. ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) بوصفه سبحانه وتعالى أعدل وأحكم الحاكمين. تأمل قوله تعالى: [الأعراف. ٨٦].
[يونس. ١٠٩]، [التين. ٨]، في المقابل وصف سبحانه حكم غيره بكونه سوءاً. تأمل قوله
تعالى: [الجاثية. ٢٠].

(٣) كما يؤكد على ذلك أهل إنكار «حد الردة»: بوصفه -حسب زعمهم- يلغي حرية
الاختيار الديني للإنسان. انظر تفصيل القول في ذلك في دراستنا: قراءة لنصوص
الحدود الشرعية.

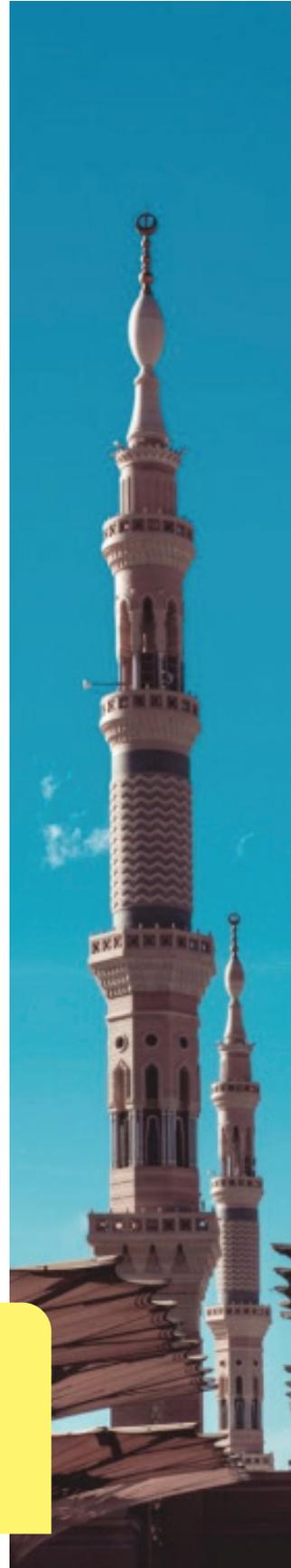


أو المختلفين فيه، لا يقوم على أساس ثابت معتبر موضوعي إلا بالاحتكام إلى وازع أو سلطة القانون، ذي القوة بنوعها التي تورث رداً ورهبة، فتقوي ضرورة التقيد به، وعدم تجاوز أو تعدي حدوده. وقد عمل الرسول عليه الصلاة والسلام في إنشاء دولة المدينة وفي مختلف علاقاتها الداخلية والخارجية، على أساس ناظم وثائق القانون؛ بحيث إن كل من خرقة ولم يتقيد به امثالاً والتزاماً، حوسب بنصه عقاباً وردعاً؛ سواء كانوا من الأقارب أو الأبعد. وتجد هذا الناظم يتجلى أساساً في وثيقة المدينة مع أهل المدينة، وكذا في صلح الحديبية مع أهل مكة وحلفائها. فمثلاً إجلاء الرسول عليه الصلاة والسلام لليهود المدينة بطوائفهم أو قبائلهم الثلاثة عن المدينة (وهم: بنو قريظة، بنو النضير وبنو قينقاع)، كان احتكاماً وتقيداً بـ«وثيقة المدينة»^(١). وكذا عزم فتح الرسول عليه السلام لمكة المكرمة بالقوة، كان أيضاً تقيداً بـ«وثيقة صلح الحديبية». فمثلاً وثيقة المدينة نصت على: «وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم... وإن اليهود ينفقون مع المومنين ما داموا محاربين... وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. وإنه لم يَأْتِ امرئ بحليفه، وإن النصر للمظلوم. وإن اليهود ينفقون مع المومنين ما داموا محاربين... وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب...»^(٢). إلا أن يهود بني قريظة مثلاً في غزوة الأحزاب (الخدق)^(٣)، خانوا الميثاق ولم يتقيدوا بالوثيقة؛ بحيث إنهم ناصرُوا أعداء الرسول عليه السلام من قريش وحلفائها على أهل المدينة من المومنين

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ١٣٩، ١٤٠، ١٦١، ١٦٤، ١٧٦، ١٨٣، صحيح البخاري، حديث رقم. ٤٠٢٨، ٤١١٧، ٤١٢٤.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ١١٢، ١١٥.

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ١٦٨، ١٧٦. تأمل آيات سورة الأحزاب، التي قد أشارت إلى العديد من متعلقاتها على عدة مستويات.



وغيرهم، كما هو ثابت في السيرة والسنة^(١). وكذا في وثيقة صلح الحديبية مع أهل مكة، حيث تم الاتفاق على: «باسمك اللهم هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض... وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها»^(٢). إلا أن طائفة من أهل مكة ممن لم يرضوا بالصلح وحلفاءهم من العرب، نقضوا الميثاق والصلح الذي كان بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام: بحيث إنهم قتلوا غدرًا من قبيلة خزاعة، التي كانت قد دخلت في حلف الرسول عليه السلام^(٣). فكان ذلك من الأسباب المباشرة لفتح مكة المكرمة سنة ثمان للهجرة.

إن هذه هي السنة أو القانون المطرد الذي كان يتعامل به الرسول عليه الصلاة والسلام مع الذين ناصبوه العداء داخلياً أو خارجياً، لم يشذ عنه أبداً. ولا ريب أن مثل هذا الناظم الكلي في بناء الدولة أو المجتمع، أو في التعامل مع الآخر، من شأنه ترسيخ احترام اختيار الفرد والجماعة على حد سواء.

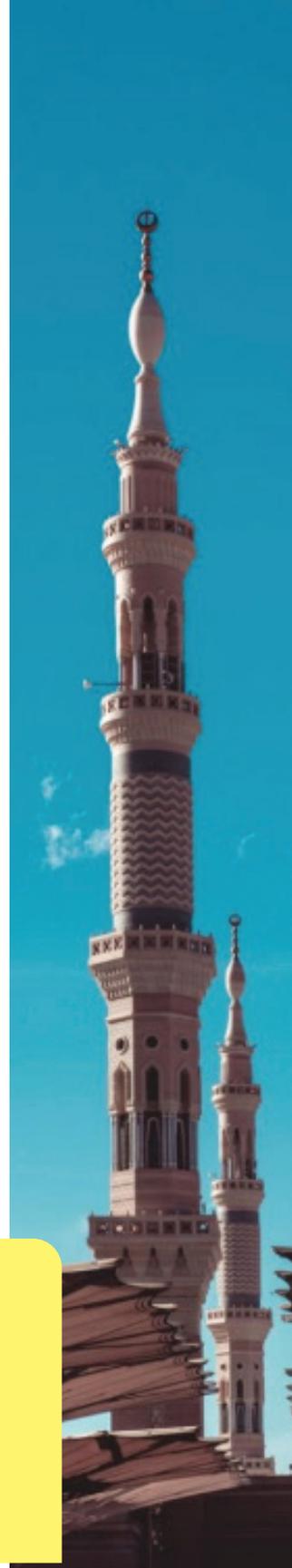
وعليه فإن فعل الرسول عليه الصلاة والسلام في تأسيس نظام أو قانون مجتمع أو دولة المدينة التعددية على المستوى الديني، بقدر ما هو تشريع نصي في تأسيس نظام الدولة وعلاقاتها الداخلية والخارجية^(٤)، هو أيضاً من أهم المعالم الكبرى لدولة أو مجتمع المدينة التعددي. فالدولة لا يقام لها أساس

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ص. ١٦٨. ١٧٦.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ٢٠١. انظر نص الصلح في: صحيح البخاري، حديث رقم. ٤٢٥٢. ٤٢٥٣.

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ٢١٥. ٢١٧. ١١٨.

(٤) ذلك أنه ليس مجرد فعل أو تأسيس تاريخي متجاوز، أو على الأقل مجرد فعل إمكاني واحد، من جملة أفعال عدة مكانية، وإلا لما كان لتسييد الوحي وفعل مقام النبوة أي معنى مُمَيَّز.



معتبر في أي مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني بدون قانون حاكم لمختلف ما يصدر عن أفرادها أو مجموعاتها الداخلية، وتبنى عليها علاقاتها الخارجية سلماً أو حرباً. لذلك، فإن غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام سواء مع أعداء الداخل (يهود المدينة)، أو مع أعداء الخارج (أهل مكة وحلفائها أو غيرهم)، لم تكن قائمة إطلاقاتاً على ناظم بدء العدوان والسعي إلى السلب والنهب والأسر. بل إن ناظمهما الكلي المطرد، إما الالتزام بمقتضيات الوثائق المبرمة، أو دفاعاً عن الحق في الحياة، بشتى تعلقاته ومتجلياته زمانئذ^(١).

رابعاً، مقوم تغليب المصالح العليا المشتركة بين الناس

إن طبيعة الدولة أو المجتمع، الاختلاف باعتبار ناظم التكوين أولاً، وناظم الخلق ثانياً، وناظم الاختيارات المتعددة ثالثاً. والاختلاف مهما كانت حدته بين الأفراد عميقة ومتجذرة، فإنه بحكم الاجتماع بين الناس أولاً، وبحكم تقدير أولي بقية من الناس ثانياً، وبحكم قانون المرحلة المعاصرة ثالثاً، يتعالى ما يوحد بينهم، خصوصاً في مراحل الشدة والضعف، ويتدنى ما يفرق للحممة الجامعة بينهم^(٢). ولا شك أن من أهم ما يجمع بين الناس بمختلف انتماءاتهم تلاحيماً، المصالح العليا المشتركة؛ بوصفها نواظم وآفاق التلاقي الفعال المثمر^(٣). وقد عمل الرسول عليه الصلاة والسلام في سبيل إنشاء دولة المدينة على مراعاة وتغليب المصالح المشتركة بينه وبين المختلفين معه في الدين أساساً، أو بينه وبين الذين يناصبونه العداء؛

(١) إن ما يدعى من يزعم قيام غزوات الرسول عليه السلام على ناظم الهجوم دون مبرر، أو البدء بالعدوان لا أساس له من الصحة، خصوصاً في عهد الرسول عليه السلام المدني.

(٢) يتنا في ملاحظة سابقة أهم ما أسسه الإسلام النصي لبناء روح ناظم التلاحم العضوي بين المسلمين والناس كلهم أجمعين.

(٣) يظهر ذلك جلياً في وثيقة «صلح الحديبية»، الذي قبله الرسول عليه الصلاة والسلام، خصوصاً ما يتعلق بوضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس.

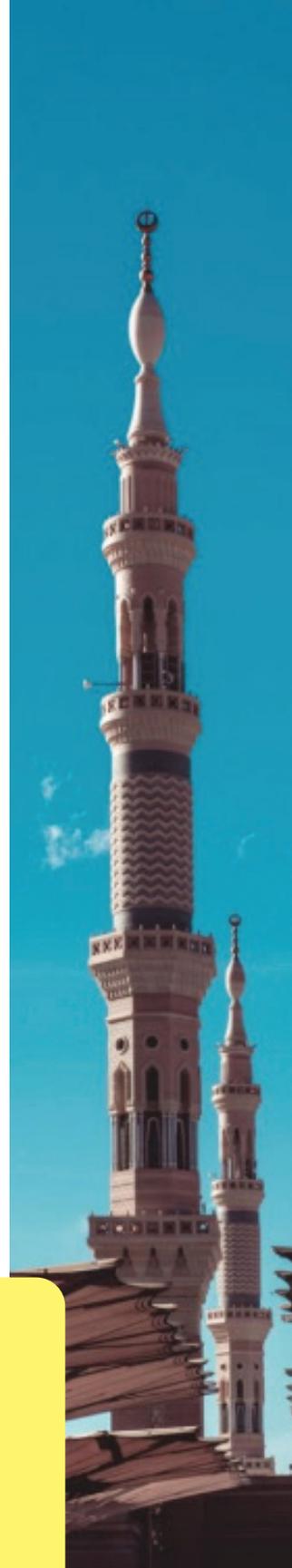


سواء كانوا داخل المدينة أو خارجها، ومن أهم ما يدل على هذا المقوم من الفعل النبوي نذكر ما يأتي:

١. أخرج البخاري وغيره في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لِمَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾. [المنافقون. ٨].
عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا في غزاة فَكَسَعَ رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجر: يا للمهاجرين. فسمعها رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال: «ما هذا؟» فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي عليه السلام: «دعوها فإنها منتنة»^(١).

إن الذي منع الرسول عليه الصلاة والسلام من قتل عبد الله بن أبي بن سلول، مع علم الرسول -عليه الصلاة والسلام- أنه كان رأس المنافقين، وسعيه الدائم للكيد للرسول عليه السلام وأصحابه في المدينة وخارجها مع أعدائه، هو الحفاظ على ناظم وكيان الوحدة الداخلية للمدينة، ودرءاً لأي صورة من صور الانقسام الداخلي؛ بوصف الوحدة الداخلية من أهم المصالح العليا المشتركة بين مكونات مجتمع المدينة التي حرص عليها الإسلام؛ بحيث متى ضعفت أو تلاشت، تنامت وتكاثرت روح التجزئة الداخلية^(٢)، وهذا من أبرز ما كان يسعى الرسول عليه السلام إلى تلافيه وتجفيف منابعه، بوصفه منافياً لمفهوم «الأمة» التي نصت عليها وثيقة المدينة المنورة، وشواهد ذلك أكثر من أن تعد أو تحصى^(٣).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٩٠٧، أسباب النزول، الواحدي، ص. ٢٤٠، تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ١١٥.
(٢) فضلاً عن أنه كان من الذين ءامنوا به ولو في الظاهر، فتعامل معه الرسول عليه السلام وفق ما أعلنه.
(٣) انظر ما أورده الواحدي في سبب نزول الآية. ١٠٠، من سورة آل عمران. أسباب النزول، ص. ٦٣، ٦٤.



٢. من أهم المصالح العليا المشتركة التي نصت عليها «وثيقة المدينة» بين المومنين واليهود وغيرهم من أهل المدينة، تجد:

أ. كونهم كلهم جميعاً أمة واحدة داخل المدينة: «هذا كتاب من محمد النبي بين المومنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس... وإن يهود بني عوف أمة مع المومنين»^(١).

ب. التنصيص على واجب الدفاع المشترك عن المدينة، متى تعرّضت لعدوان خارجي؛ سواء تعلق بالمومنين أو باليهود أو غيرهم من أهل المدينة: «إن اليهود ينفقون مع المومنين ما داموا محاربين... وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة».

ج. تحديد المرجعية العليا لفض النزاع العام داخل المدينة: «وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم... وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٢).

من أهم المصالح العليا المشتركة التي تم التنصيص عليها في وثيقة «صلح الحديبية»، بين المؤمنين ومن دخل في حلفهم، والمشتركين من أهل مكة ومن داخل في حلفهم، نجد:

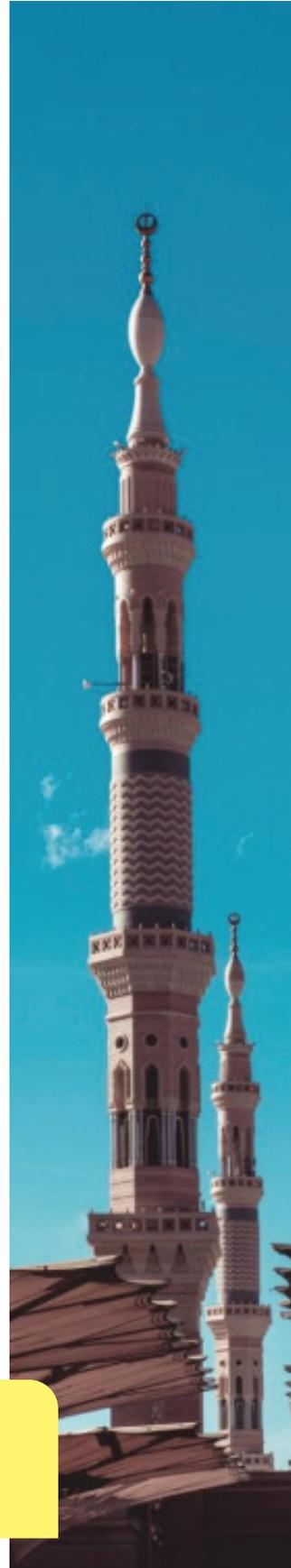
أ. جعل الأمن بين الناس عاماً لكلهم جميعاً، لتروج مسالك الحياة من تجارة وزراعة ونحوها.

ب. رفع الحرب وتكاليفها عن الناس مدة من الزمن للإعمار والتقوية والمراجعة ونحوها: «اصطلحنا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض»^(٣).

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ١١٢، ١١٥.

(٢) نفسه.

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ٢٠١.

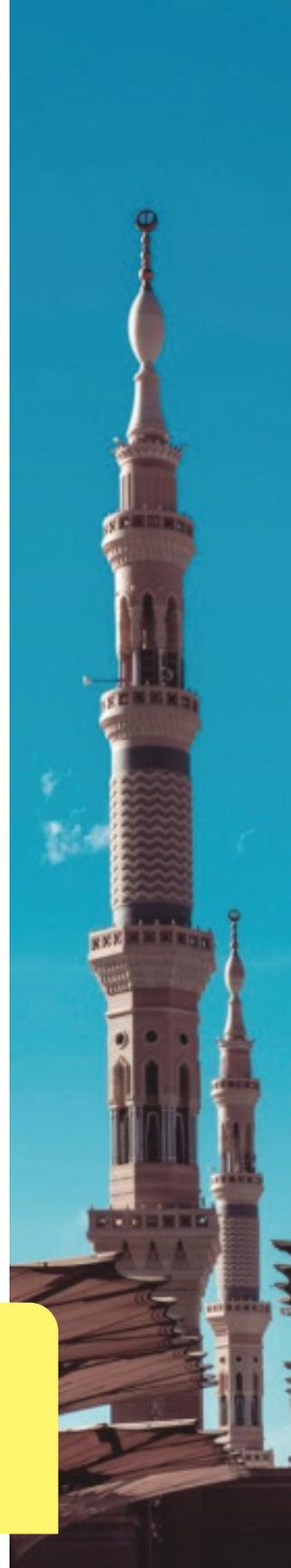


إن حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على سريران المصالح العليا المشتركة بين الناس: سواء داخل المدينة أو خارجها، هو الذي جعله يغلبها على أي اعتبار آخر، طائفي أو فئوي ضيق. خصوصاً أن بناء الدولة في المدينة في عهده عليه الصلاة والسلام، كانت ما زالت في بدايات التأسيس. وتلك المصالح العليا المشتركة ليست مجردة، بل مؤيدة تسديداً بالوحي، إذ إن العديد من النصوص الشرعية الصحيحة الصريحة، وردت في سياق وضع لبناتها التأسيسية. وقد أثبتت الوقائع فيما بعد أن فعل الرسول عليه الصلاة والسلام، كان فاتحاً لأبواب شتى للخير، ومغلقاً لمتنافذ عدة من الشر^(١).

وعليه فإن فعل الرسول عليه الصلاة والسلام القائم على ناظم تغليب المصالح العليا المشتركة في إقامة تأسيس مجتمع أو دولة المدينة ومختلف علاقاتها الداخلية والخارجية، ليس بين المومنين به فحسب، بل بين مختلف أهل المدينة ومكة وحلفائهما، وهو فعل بقدر دلالاته على منهج قانون سياسة الرسول عليه السلام المتبعة في بناء دلالة مفهوم «الدولة»، يدل أيضاً على أنه فعل مسدد وليس مجرداً، إذ كان في مختلف مراحل بنائه مصحوباً بالوحي المنزل^(٢). وقد أثبت التاريخ الإنساني أن تشكيل مفهوم ناظم الوحدة أو الاتحاد بين المختلفين خصوصاً، لا يتم إلا من خلال تغليب المصالح العليا المشتركة أو العارمة. وتجاوز في المقابل مختلف الخصوصيات العرّضية، دينية كانت أو ثقافية أو اجتماعية ونحوها، وإلا عاشت المجتمعات الإنسانية عبارة عن جزر مفصولة بعضها عن بعض، مما يجعلها في عدم توافق على معايير عليا محددة مشتركة، مما يفضي بها إلى صراعات أو نزاعات لا محددة ولا محدودة. فيذهب أمنها ويعظم الاعتداء من بعضها على

(١) لذلك سقى الصحابة رضي الله عنهم «صلح الحديبية» يوم «بيعة الرضوان» «فتحاً». صحيح البخاري، حديث رقم ٤١٥٠.

(٢) ذلك ما يجعل من مقام تصرف الرسول عليه الصلاة والسلام، يخضع لناظم الوجوب على مستوى الإلتحاق، وليس لناظم الإمكان، كما هو منظور اجتهاد أبي يعرب المرزوقي، وليس أيضاً لناظم الاجتهاد التاريخي كما هو اجتهاد الكثير.



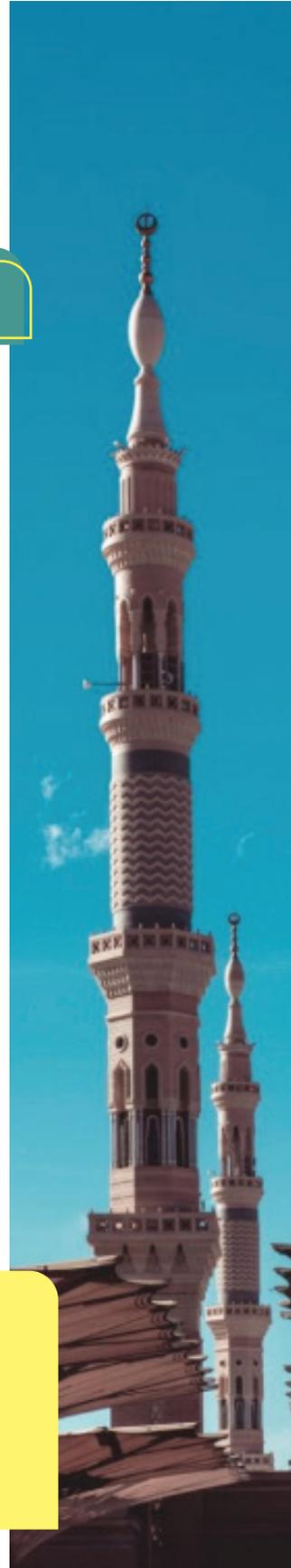
بعض، وذلك من أهم ما يعطل روح فعل حياة المجتمعات، ويحول قبرة أو وجهة العمران الإنساني عن معناها ومغزاها.

خامساً. مقوم الالتزام الذاتي بالمرجعية الأخلاقية المعيارية

إن الفعل الإنساني الواعي بقدر تقيده بالقانون ذي الوازع السلطوي المادي الخارجي القاهر، يتقيد أيضاً بالأخلاق، ذات الوازع الرمزي الذاتي الداخلي. ومن المعلوم أن قوة الوازع الرمزي الداخلي، أو قل الضمير الأخلاقي، أشد أثراً من الوازع السلطوي؛ بحيث إن القانون قائم على قوة العقاب، في حين الأخلاق قائمة على قوة المراقبة الذاتية^(١). لذلك تجد الرسول عليه الصلاة والسلام في تأسيسه لمجتمع المدينة المنورة المتعدد دينياً، بقدر ما اعتمد في سبيل ذلك على قوة القانون الزجرية المادية، اعتمد أيضاً على قوة الأخلاق؛ بوصفها مرجعية معيارية حاكمة لأفعال الإنسان عملياً ذاتياً، فتكون بالتبع قوتها على الإصلاح والتأثير الإيجابي أشد من غيرها. وقد كان عليه الصلاة والسلام في مختلف لقاءاته مع الذين آمنوا به وغيرهم من عموم الناس، يجنح فيها نحو ترسيخ أثر قوة الأخلاق في نفوس وضمائر الأفراد باعتبار قوة أثرها العملي المتعدي^(٢). والناظر على سبيل المثال في «بيعة العقبة الثانية» وفي «وثيقة المدينة» يجد أن الطابع الأخلاقي هو المهيم عليهما. ذلك أن الإنسان عموماً، والعربي وقتئذ خصوصاً، لم يكن ينفك قوله وفعله في الغالب عن الأخلاق، وإن تخللتها تحريفات على مستوى السريان؛ بالنظر

(١) ذلك أن الناظم الكلي الذي يقوم عليه الإسلام النصي، ابتداءً بالإيمان، هو الاختيار الحر ذي الوازع الرمزي الذاتي.

(٢) ذلك أن من أهم ما بعث به عليه الصلاة والسلام، هو كما قال: «بعثت لأتمم حسن الأخلاق». الموطأ، كتاب حسن الخلق، حديث رقم ٨. وفي روايات أخرى، روي بغير هذه الصياغة بالزيادة والنقصان والتغيير، كشأن الكثير من نصوص السنة النبوية.



إلى عامل الزمان والمكان^(١). وناظم الأخلاق هو في الأصل أثر التشريع القرآني النصي، الذي لا يختلف في أصوله الكلية عن محاولات الفطرة الإنسانية الخلقية: بوصفها ذات صبغة أخلاقية جامعة، ومما يدل على بعض ما سلف، نذكر ما يأتي:

١. ففي «بيعة العقبة الثانية»، قال عليه الصلاة والسلام: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: «نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعك مما نمنع منه أُرُونا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر»^(٢). فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان، فقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال جبالاً وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ثم قال: «بل الدم الدم، الهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم، وأسالم من سالمتم»^(٣).

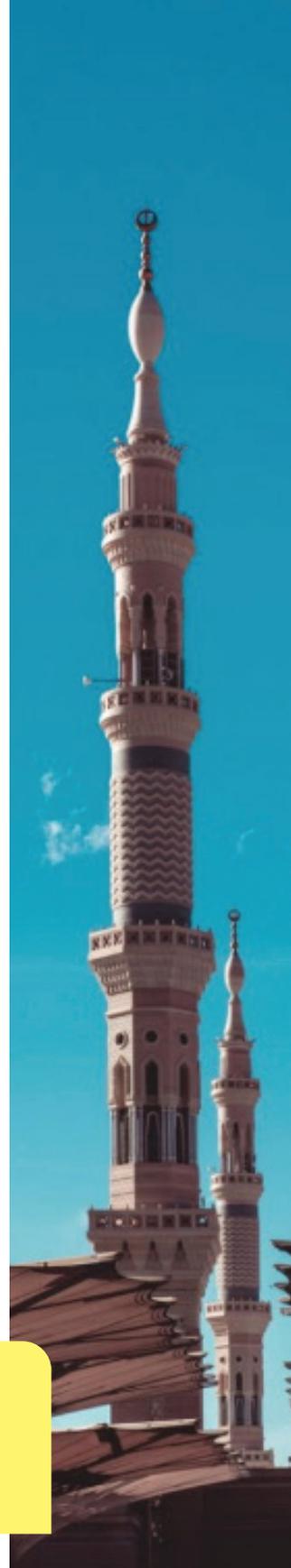
٢. وفي «وثيقة المدينة» نص الرسول عليه الصلاة والسلام على: «... كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المومنين وبنو ساعدة على ربعمهم يتعاقلون معاقلهم الأولى... وإن المومنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل... وإن المومنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المومنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم... وإنه من تبغنا من يهود المدينة فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم... وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قَوْدٌ به... وإن بينهم النصح والنصيحة والبرء دون الإثم. وإنه لم يَأْتَم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم»^(٤).

(١) مثل خلق «الكرم» و«نصرة المظلوم» ونحوهما.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ٩٦.

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ٩٧.

(٤) تهذيب سيرة ابن هشام، ص. ١١٢، ١١٥.



٣. أوردت مصنفات السنة النبوية العديد من النصوص الدالة على بيعة الرسول عليه الصلاة والسلام للناس^(١)، فمن ذلك:

أ. أخرج البخاري عن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكروه، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم بالحق حينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم^(٢).

ب. أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر قال: كنا إذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة يقول لنا: «فيما استطعتم»^(٣).

ج. أخرج البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وقى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه»^(٤).

د. أخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [المتحنة، ١٢]. وقالت: وما منبت يد رسول الله يد امرأة إلا امرأة يملكها^(٥).

(١) سواء كانت بيعة عامة أو خاصة.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم، ٧١٩٩، ٧٢٠٠.

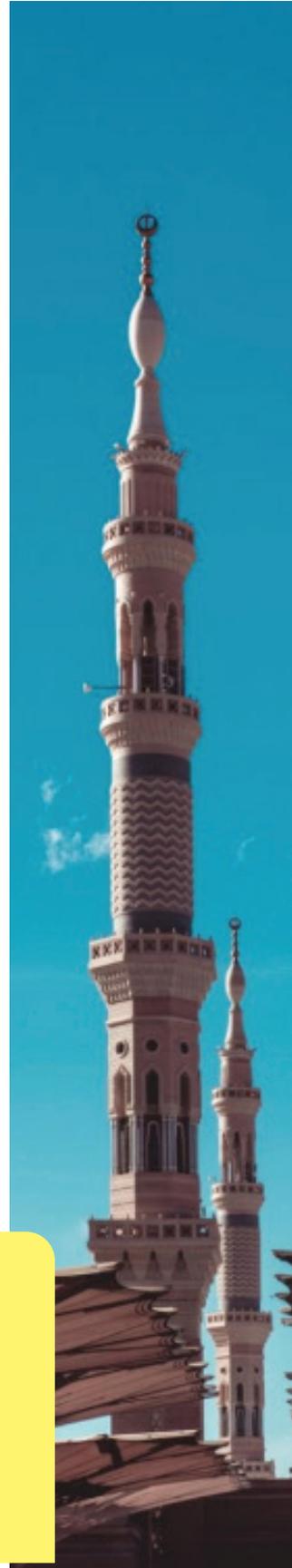
(٣) صحيح البخاري، حديث رقم، ٧٢٠٢، صحيح مسلم، حديث رقم، ١٨٦٧.

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم، ١٨، صحيح مسلم، حديث رقم، ١٧٠٩، سواء كانت بيعة

الرجال أو النساء، سنن النسائي، حديث رقم، ٤١٧٩، ٤١٨٠، ٤١٨١، صحيح مسلم، حديث

رقم، ١٨٦٦، صحيح البخاري، حديث رقم، ٧٢١٣، ٧٢١٥.

(٥) صحيح البخاري، حديث رقم، ٧٢١٤، صحيح مسلم، حديث رقم، ١٨٦٦.



وعليه فإن فعل الرسول عليه الصلاة والسلام، سواء في هذا الموضوع، أو في مطلق مواضيع دعوته، كان يتحرى أشد ما يكون التحري منظومة القيم الأخلاقية في تعامله مع مطلق الناس، سواء كانوا من أهل أمة الإجابة أو أمة الدعوة، وفي قوله وفعله وفي شأنه كله^(١). لذلك فإن تحقيق ما حققه في وقت قياسي، خصوصاً في العهد المدني، كان بفضل هذا العمود الفقري في الدعوة، ألا وهو السير وفق ناظم الأخلاق. وقد أسس عليه السلام مختلف مفاصل ومرافق مجتمع أو دولة المدينة وفق هذا الناظم بوصف القيم الأخلاقية، خصوصاً في بعدها الإنساني، مرجعية معيارية عليا للفعل والترك، في البناء والتأسيس، وفي التخطيط والتجاوز.

بناءً على ما تقدم يمكن القول: إن ما ذكرناه من مقومات السياسة النبوية للرسول عليه الصلاة والسلام في بناء مجتمع أو دولة المدنية ليس من باب الاستقصاء الكلي، وإنما من باب التمثيل الجزئي، للدلالة على أن فعل الرسول عليه السلام في ذلك لم يكن من باب المصادفة أو الاعتباط، أو حتى المعجزة، وإنما كان من باب رسم استراتيجية البناء والسير على مقتضياتها وفق تسديد الوحي المنزل. لذلك فإن الموضوع ما زال في أمس الحاجة إلى تكثير الدراسات وتعدد البحوث، ليكتمل النسق النبوي من مختلف جوانبه، ليتبين للمدعي بالنفي، عكس ما ادعاه نفياً^(٢). ذلك أن كثيراً من الدعاوى التي يرفعها أهل القول العجول غير المخمّر، مردها أساساً إلى عدم تحقيق النظر المجرد، أو إلى الإسراع للقم أو تقليد المنقول الجاهز، والسعي لإيجاد ما يوافق في المأصول الإسلامي، فإن وجد؛ ادعى المدعي أن ذلك من باب ما هو تاريخي، وإن لم يجد؛ اجتهد بكل الوسائل الممكنة للدعوة إلى حث الناس على تقليد المنقول، وتلك الآفة الكبرى للعلمانيين المولعين بتقليد حاضر الأجنبي.

(١) تأمل قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ). [القلم، ٤].

(٢) إن الذين ينفون دلالة مفهوم «الدولة» في الإسلام ليس ذلك مقتصراً على الطرح النظري، بل يشمل الجانب التنزيلي أيضاً، وهو نفي -كما انضح لك- لا يقوم على أسس علمية موضوعية مجردة. وكنا في مقالة منشورة سابقاً بمركز نماء، قد أوردنا جملة من المنطلقات المؤسسة للدولة من المنظور الإسلامي.

